

بمناسبة واجب عزاء

كان على أن أذهب لتعزيته فى وفاة ابنة نتيجة حادث سيارة ، انقلبت به وهو عائد من زيارة أعمامه فى القرية . كان الحادث مروعا ، والآدهى أن المصيبة جلى . فالولد هو الوحيد على ثلاث بنات ، وكان والده يأمل أن يكون هو سند الأسرة من بعده . وسبحان الله ! كان شابا مضى الوجه ، ممشوق القوام متفوقا فى دراسته بكلية الهندسة ، وعلى مستوى رفيع من الأدب والأخلاق .

كان يجلس معنا عندما ذور والده مؤدبا ، مصغيا ، ساهيا فى راحتنا بأى شكل . فهو الذى يقدم لنا الشاي ، ويصبه ، ويسأل كلا منا عن عدد قطع السكر التى يضعها فى كوبه ، وبادر بسؤال أحدنا : هل أنت مرتاح ياعمى فى مقعدك ، أم أحضر لك مسندا ؟

كان الأب محطما بالكامل . ولما أدري كيف هى حالة الأم ؟ وأخواته البنات ؟ لقد كان بالنسبة إليهن الواجهة التى تقدمهن للمجتمع ، والمظهر الذى يستندن إليه على المدى الطويل . ثم لمن تؤول إدارة الثروة التى أنفق الأب عمره الطويل فى جمعها ؟

لا شك أبدا فى أن الموت حق ، لكن الفراق هو قاصمة الظهر ، وخاصة للأبىاء والأمهات حين يفقدون أبناءهم ، وهم على بعد خطوات قليلة من القبر . إن النهار يظلم ، والشمس تختفى ، ولا يبقى سوى الليل الشديد السواد ، ودقات ساعة الحائط التى تعرض لحنا جنازينا لا يتوقف ..

فى ليلة العزاء ، ينشغل أهل المتوفى باستقبال الأحباب والأصحاب والمعارف من قريب وحتى من بعيد . وكلهم يحتضن أو يشد على اليد قائلا : (البقاء لله) ، وتكون الإجابة : (شكر الله سعيكم) . أما حين يقول أحدهم للوالد : (إن شاء الله تكون آخر الأحزان) فإنه ينظر إليه بانكسار ، وكأنما يقول (كيف هى آخر الأحزان ؟ إنها عندى أكبر الأحزان) !

وعندما ينصرف آخر المعزين ، وتتم محاسبة المقرئين وصاحب الفراشة ومقدمى القهوة والمياه ، يكون الإرهاق قد بلغ بأهل المتوفى مداه ، ويودون لو يسرعون بالعودة إلى المنزل لكى يريحوا أجسادهم المنهكة ، ويخلوا لأنفسهم لكى يعيشوا لحظة حزن مركزة مع فقيدهم الغالى .

وهنا يأتى النوم .. فينتزعهم من هموم الحياة . وقد قيل بحق إن النوم موت قصير لا يلبث الإنسان أن يستيقظ منه ، بينما الموت نوم

طويل لا ينتهى إلامع لحظة البعث يوم القيامة . وفى هذا النوم القصير ، قد تلوح بعض الأحلام المزعجة ، كما قد تهجم بعض الكوابيس الثقيلة . المهم أن الجسم يستريح قليلا دون أن تختفى من الحلق غصة لا تستطيع كل أنهار العالم إزالة مرارتها .

فى الأيام التالية للوفاة ، يمنح الله لأهل الميت قدرا من النسيان ، وهو ينساب رويدا رويدا مثل زخات المطر الى تتوالى على صخرة فتجعلها نظيفة وملساء . وأخيرا يعلو صوت القضاء والمقدر ، فيعيد صاحب المصيبة إلى حقيقة أن أما حدث له إنما هو حلقة واحدة فى سلسلة طويلة من الأحداث المقررة سلفا ، وأنها تشمل كل الكائنات الى خلقها الله ، وحدد لكل منها بداية ونهاية لا تتخلفان . وعندئذ يبدأ فى الإصغاء إلى آيات القرآن الكريم ، وقد يقبل على قراءته وكلما تذكر فقيدته قرأ الفاتحة على روحه ، وأخرج بعض المصدقات من أجله ..

وهكذا تمضى الحياة ، ممزوجة بالموت . وهما معا من خلق الله .